الشعب العراقي ليس حقلا للتجارب

الدوافع الامريكية وراء اعلان منطقة الحظر الجوي

اعلن الرئيس الامريكي الاربعاء 26 آب 1992، عن بدء "عملية مراقبة الجنوب" وهو الاسم الذي اطلقته وزارة الدفاع الامريكية على الحظر على الطيران العراقي بكل اشكاله فوق المنطقة الواقعة جنوب خط العرض 32. وذكر بوش ان الاجراءات المتخذة تهدف الى "تدعيم قدرتنا على مراقبة التطورات في جنوب العراق وهي منسجمة مع السياسة الامريكية المستمرة حيال هذا البلد". وذكر ان الولايات المتحدة "تتطلع الى العمل مع قيادة جديدة في بغداد، قيادة لا تقمع شعبها ولاتخرق القواعد الانسانية الاساسية". كما اكد ان التحالف "مستعد لدرس خطوات جديدة اذا استمر صدام في خرق هذا القرار (688) وغيره من قرارات الامم المتحدة".

وقال الجنرال مارتين براندتنر ان : "الهدف من انشاء المنطقة منع سلاح الجو العراقي من مهاجمة المتمردين الشيعة، وان الطيران الحليف (الذي يضم قوات امريكية وبريطانية وفرنسية) يحتفظ بحق اسقاط اي طائرة عراقية تدخل المنطقة المحظورة. واوضح ان المنطقة هي منطقة حظر الطيران فيها وليس "منطقة امنة" لان المنطقة الامنية تعني وجود قوات على الارض تراقب الوضع."

رغم الكلمات القوية للاعلان إلا ان دور وصلاحيات الدول المتحالفة في المنطقة المحظورة للطيران هو في الواقع اقل مما قاله جون ميجر عندما اعلن قبل اسبوع عن نية فرض الحظر لحماية الشيعة. حيث اعلن وزير خارجيته، دوغلاس هيرد بان هدف الحظر هو " منع طائرات ومروحيات صدام من ضرب ابناء شعبه". ولكن ليس هناك حسب ماتقول الاندبندت (27/8/1992) ما يؤكد قيام طيران صدام بمثل هذا الضرب منذ اكثر من شهر، وعليه فان اعلان منطقة الحظر للطيران هي ليست لحماية الشيعة، وانما هدفها كما ذكر مصدر مسؤول هو توفير الحرية للطيران البريطاني والامريكي بمراقبة التزام العراق بقرار الامم المتحدة 688، الذي يمنع اضطهاد المواطنين العراقيين.

ان هذا التغيير الشكلي في التعبير جاء لأرضاء تحفظات سياسية وقانونية من قبل اطراف دولية عديدة، فقرار استخدام القوة اثار مخاوف الخبراء القانونين الدوليين، حيث على عكس قرار 687 بشأن تدمير الاسلحة العراقية، فان قرار 688 لا يخول او يجيز استخدام القوة. ومن الناحية السياسية، كانت هناك ضرورة مراعاة مشاعر معظم الدول العربية الذي تخوفت من ان يكون هذا الاجراء خطوة نحو تقسيم العراق الذي تبقى المنطقة بحاجة لوجودة لمواجهة الخطر الايراني المحتمل. والسبب في تأخر بوش لمدة اسبوع بعد اعلان ميجر لاجراء الحظر يعود لمراعاة رغبة الرياض في كسب موافقة مصر وسوريا للقرار، وكذلك لتبديد الشكوك بان بوش يستغل اعلان القرار ابان انعقاد مؤتمر الحزب الجمهوري لاغراض انتخابية.

اذا كان هذا هو التخريج الرسمي لاعلان منطقة الحظر الجوي في جنوب العراق، فياترى ماهو الدافع الحقيقي ؟

تقول الايكومنست (22/8/1992) - "ان من السخف التظاهر بان عودة الحلفاء مجددا بقيادة الولايات المتحدة للعراق هو بدافع الحرص الرومنسي على قبائل الصيادين، او نتيجة اكتشاف مفاجىء لتعرضهم للاضطهاد. ان مايريدونه، وبالذات جورج بوش، هو رأس صدام. الذي كان يفترض ان تسقطة المقاطعة ولكن مع ذلك استمر باصرار على البقاء"

وتقول الانديبندت البريطانية (28/8/1992) - "ان الهدف الاساس من فرض منطقة الحظر الجوي على جنوب العراق من قبل الولايات المتحدة، بريطانيا وفرنسا هو مساعدة الرئيس بوش لاعادة انتخابه".

-ان استمرار صدام حسين في الحكم اصبح مرفوضا ومحرجاً للرئيس الامريكي المقبل على انتخابات رئاسية في نوفمبر القادم، وباتت الاطاحة بصدام اهم ورقة انتخابية بيد الرئيس الامريكي للتذكير باهمية دوره كمتمرس في الشؤون الدولية مقابل قلة خبرة منافسة كلينتون. يصف المعلقان رولاند ايفان، وروبرت نوفاك المعروفان باطلاعهما الوثيق ان "الاطاحة بخصمه العنيد - صدام- ينظر اليه بيكر على انه سيمثل نجاحاً بضربة واحدة، وهي الوحيدة المتاحة في الواقع التي يمكن ان تغير مصير حملة بوش الانتخابية للافضل بين ليلة وضحاها" ورغم نفي البيت الابيض لرواية النيويورك تايمس (16/8/1992) عن تخطيط الادارة الامريكية لافتعال معركة مع صدام من خلال المفتشين الدوليين لاغراض انتخابية الا ان كل الشواهد تؤكد ان البيت الابيض يسعى جاهداً لخلق الضغوط بشتى اشكالها لاسقاط صدام قبل انتخابات الرئاسة في نوفمبر القادم، حتى لو اضطر الامر الى افتعالها.

ان ضرب مباني الوزارات ما كان له باي حال من الاحوال ان يحقق هدف الرئيس بوش، بل قد يساعد على خلق جو شعبي عراقي وعربي متعاطف مع النظام العراقي. كماان فشل ذلك الاجراء في الاطاحة بصدام سوف يزيد من احراج بوش الى حد خسارته الاكيدة للانتخابات.

ان توجه الادارة الامريكية بالتعاون مع بريطانيا وفرنسا الى استخدام ورقة الشيعة وقرار 688 لمجلس الامن تندرج تحت ذات العنوان . فالمنطقة الجنوبية والاهوار بالذات معرضة للضرب منذ اكثر من عام ونصف، كما ان الطيران العراقي حسب اعتراف المصادر الامريكية لم يستخدم من اكثر من شهر في ضرب الجنوب. اضافة الى ان امريكا تخلت عن الجنوب عندما انتفض في اذار 1991 بحجة الخوف من الاصولية الاسلامية او الاستغلال الايراني.

وما يجعل من الورقة الشيعية غطاء غير مقنع (في وقت لاتطالب واشنطن بمنطقة امنة لسكان البوسنة) هو ان مراكز الشيعة في كربلاء وبغداد وغيرها غير مشمولة، كما هذا الامر يفترض ان خرق حقوق الانسان في العراق محصور في الشمال والجنوب وكإن الوسط، وخاصة السنة غير مضطهدين وهذا امر مخالف للحقيقة.

- ان نهج السياسة الامريكية تجاه العراق منذ وقف اطلاق النار في آذار 1991، يتسم بالتخبط والتردد وعلى حد وصف الكاتب البريطاني مارتن ولكر "انها سياسة نصف الحمل" Policies of half pregnancies لقد اعلنت دول التحالف جنوب العراق منطقة محظورة جويا على الطيران العراقي، ولكن ماذا بعد ذلك، وتتساءل الايكومنست (23/8/1992) "ما هو الموقف اذا ما امتنع صدام عن تحليق طائراته ولكن استمر في استخدام مدفعيته ودباباته في ضرب الجنوب" ليس هناك جواب واضح، خاصة اذا رفض صدام الدخول في مجابهة مع الطيران الامريكي. وعندها قد تجد واشنطن نفسها متورطة في فرض منطقة امنة في جنوب العراق يحظر على جيش صدام دخولها، فبقدر رغبة واشنطن استبعاد هذا الخيار الا انها ستجد نفسها مضطرة له اذا ما فشلت مساعي الاطاحة بصدام من الداخل. ومن المفيد الاشارة الى قول السيد جلال الطالباني، زعيم الاتحاد الوطني الكردستاني (اللوموند 21/8/1992) بان اقامة منطقة محظورة للطيران في جنوب العراق هي "مجرد خطوة اولى"، ومضي يقول "استمعوا بكثب لما قاله رئيس الوزراء البريطاني جون ميجر" فهو يقول "انه يريد ان يحمي كل الشيعة ومن مختلف الاصول من الفناء على يد الجيش العراقي، وعلية لايمكن ان يحدد بمنع الطيران فقط".

ومرة اخرى نتساءل هل اقامة مثل هذه المنطقة الامنة المحمية كفيلة باسقاط النظام وبالذات صدام ؟

دور المعارضة العراقية

اصبحت جماعة مؤتمر فيينا بمثابة المعارضة الرسمية المعترف بها امريكيا، وبذلك ورطت واشنطن نفسها في اللعبة السياسية الداخلية بانحيازها لطرف عراقي معارض دون اخر، على نقيض ادعاءاتها السابقة. وان الطريقة اللاديمقراطية التي تم بها انبثاق قيادة مايعرف اليوم بالمؤتمر الوطني العراقي والالتزام الامريكي بها يكرس خوف القوى الوطنية العراقية الاخرى وبالذات التيار الاسلامي والتيار القومي العربي من عدم استعداد واشنطن لقبول بديل ديمقراطي للعراق، ومن حقها أن تتخوف من النهج الامريكي وبالتالي معارضة جماعة فيينا و ما أدى ذلك من انشقاق في اوساط المعارضة العراقية.

سارعت جماعة فيينا الى تأييد القرار الامريكي باقامة المنطقة المحظورة جويا، وذهبت الى المطالبة باقامة المنطقة المحمية دون دراسة وتمحيص. لقد تأخر القرار الامريكي واعيد اخراجه باسم "المنطقة المحظورة للطيران" نتيجة مخاوف عربية من ان يؤدي الاجراء الى التقسيم، بينما جماعة فيينا عجزت عن تقديم تصور سياسي وعسكري عملي للمنطقة الامنة المطلوبة. ان السؤال الذي يتوجب على واشنطن ان تسأله هل بقدرة جماعة فيينا توفير قيادة فعلية لسكان الجنوب العراقي في حال قيام منطقة امنة او محمية ؟

- ان المنطقة الامنة الشمالية التي يقطنها الاكراد، على رغم وجود قيادات سياسية واحزاب على الارض عريقة في نضالها، اضافة الى مليشيات البيشمركة، تعاني امنيا، وغذائياً، واقتصاديا. فكيف الحال في منطقة جنوبية عربية

عشائرية لا يوجد فيها تنظيم شعبي قادر على استلام السلطة، والعناصر التي ساهمت في انتفاضة اذار 1991 خذلت وانتهى معظمها الى الموت او الاعتقال او اللجوء الى ايران والسعودية. وليس من باب الاتهام او التجني القول بان الرموز العربية في جماعة فيينا لا تملك الزعامة او الشعبية او التنظيم القادر على السيطرة وملىء الفراغ الناجم عن غياب السلطة المركزية والجيش العراقي. هنا يثار التساؤل الاخر : كيف ستتصرف واشنطن لملىء الفراغ السياسي والامني والغذائي والاداري في المنطقة الامنة في حال قيامها ؟ هل عند واشنطن اجابة على ذلك، وهل لدى جماعة فيينا من المعارضة العراقية جواب ؟

- ان استخدام الورقة الشيعية من قبل الادارة الامريكية بهذا الشكل الفج، قد يفيدها موقتا في ازعاج صدام او في كسب بعض الاصوات الانتخابية، ولكنها بدون شك تزرع الغاماً قابلة للتفجر في المستقبل القريب. فإثارة البعد الطائفي الشيعي في الصراع مع صدام، يفتح الباب امام تجزئة العراق كنتيجة وان لم يكن هو الهدف. كما ان للمشاعر الطائفية قدرة خاصة على الانتشار والعدوى، واذا ما عرفنا ان الكويت والسعودية والبحرين تضم اقليات شيعية كبيرة فان احتمال تفجير الخصومات امر محتمل ان لم يكن حتمي في حال نجاح اللعبة الطائفية في العراق، كما تمنح امريكا بسياستها هذه ايران سلاحاً ذا حدين يتجاوز الخليج الى الجمهوريات الاسلامية السوفيتية السابقة، وافغانستان والباكستان.

ان استخدام الشعب العراقي كحقل تجارب امر يجب التوقف عنه، وكفى هذا الشعب معاناته على يد صدام ليقحم في سياسات غير ناضجة. ومع ذلك يبقى السؤال : هل اقامة المنطقة المحظورة او الامنة في جنوب العراق ستسقط صدام ؟

صدام والمنطقة الامنة في الجنوب

منذ اعلان المنطقة المحظورة اكدت المصادر العراقية الرسمية بانها سوف لن تتحدى الطيران الامريكي، خاصة وان عملية قمع الانتفاضة في الجنوب قد قطعت شوطا كبيرا، وبإمكان صدام الاستمرار (وهناك اخبار باستمرار القمع حتى بعد فرض الحظر الجوي) في استخدام قواته البرية ومدفعيته ودباباته لقمع ما تبقى من ثورة.

ولكن صدام وهو معني بالدرجة الاولى في البقاء في السلطة يبقى مستعداً للاستمرار في الحكم ولو في مدينة بغداد بمفردها ولا يتخلى عن الحكم، محملاً امريكا والغرب مسؤولية الدمار في الشمال والجنوب . والظهور امام المواطن العراقي والعربي عموما بمظهر المدافع عن استقلال ووحدة الاراضي العراقية، خاصة وان قرار اقامة المنطقة المحظورة تزامن مع صدور قرار عن مجلس الامن (26/8/1992) يثني على اعمال لجنة ترسيم الحدود بين الكويت والعراق التابعة للامم المتحدة وطالب العراق بتنفيذ قرارات اللجنة، وتعهد القرار بحماية الحدود الجديدة بكل الوسائل الضرورية.

إن معاملة وسط العراق كمنطقة غير مضطهدة تجيير مشاعر الخوف عند المسلمين السنة والمسيحيين وغيرهم من الهيمنة الشيعية لصالح النظام العراقي، وبذلك يكرس الانقسام الطائفي وما قد يليه من تقسيم.

- ان الجيش العراقي بقدر ما يكن مشاعر العداء لصدام، لايمكن ان يقبل ان يكون اداة تخدم التقسيم وتكريس الطائفية، فحتى لو تمرد البعض منهم فسيجد البعض الاخر من الجيش من يتصدى له. مما يمهد الامر الى حرب اهلية تدمر ما تبقى من العراق دون ضمان سقوط صدام. ولنا من التجربة الافغانية نموذج حي في الانقسام والاقتتال العشائري والطائفي والسياسي.

- قد يستغل صدام اقامة منطقة امنة في الجنوب لحرمانها، كما حرم الشمال، من الغذاء والدواء محملاً الغرب مسؤولية اطعامهم، وبقدر ما تفشل المعارضة في تكريس وحدتها وتوفير ادارة فاعلة، امنيا واقتصاديا وسياسيا، في اوساط الجنوب يظهر صدام بمظهر الرجل المحافظ على الامن، وما يوفره من غذاء ودواء يستغله كاداة لكسب الاعوان في الوسط.

خطوات لابد منها من اجل سلامة مستبقل العراق

- ان فشل فصائل المعارضة المختلفة المتواجدة في الخارج في الاتفاق على برنامج عمل سياسي مشترك للخلاص الوطني وضياع بعضها في لجة المناورات والخصومات الجانبية افقدها الكثير من مصداقيتها على الصعيدين الشعبي الداخلي والدولي. والخطوة الاولى لضمان نجاحها هي في تجسيير الهوة بين جماعة مؤتمر فيينا من جهة والقوى السياسية المقاطعة لذلك المؤتمر، على اساس صيغة ديمقراطية توفيقية.

- ان سلبية وعزوف الكثير من الشخصيات والتجمعات العراقية في الخارج عن العمل السياسي له مبرراته، وابرزها القرف من حالة التشرذم بين صفوف المتصدرين لقيادة المعارضة. المطلوب تعبئة هذه القوى - الاغلبية الصامتة - في مسيرة العمل الشعبي وتحويلها الى اداة ضغط باتجاه بلورة تيار وطني عراقي مستقل تعددي و ديمقراطي. يخرجنا من دوامة الانقسامات والصراعات الهامشية القائمة.

- ان القوى الكردية مطالبة اليوم اكثر من اي وقت مضى أن تثبت عراقيتها من خلال التعاون ضمن صيغة تحالفية شاملة، لا ان تغلب المكاسب القومية الضيقة على الحل الديمقراطي للقضية العراقية الشاملة. والوضع المتميز نسبيا الذي تتمتع به يحملها مزيداً من المسؤولية، كما يعطيها فرصة تاريخية لان تلعب دوراً رائدا في قيادة كل العراق.

- لقد انتهى عصر الحلول السحرية، فمسيرة العذاب الطويلة منذ انتهاء حرب الخليج الثانية، يجب ان تعطينا درساً في الاعتماد على الذات وعدم التعويل المطلق على الحل الخارجي.

-ان الاعتراف بالواقع العنصري والطائفي القائم في العراق يجب ان لا يعني تكريسه من خلال حلول عنصرية او طائفية تسوقنا الى التقسيم. ان مثل هذه الممارسات قد تخدم البعض، ولكنها حتما ليست بمصلحة العراق الموحد. ان التصور السياسي لدى القوى السياسية العراقية للحل الوطني لايزال قاصراً، ابتداء من اسلوب اسقاط صدام الى ماهية النظام البديل، حيث الكلمات الغامضة ماعادت تستر النوايا الانانية والطائفية والعنصرية لدى البعض.

(الملف العراقي، العدد 10 - ايلول 1992)